إلماحات من التربية الروحية في رسالة

ابن أبي زيد القيرواني (386هـ)

عبدالرحمن راشد الحقان - الكويت

مقدمة

أحمده سبحانه وأصلي على رسوله الكريم -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه- وبعد،،،،،

من أعظم مهام الحاكم المسلم الحرص على الوحدة الوطنية، والاستقرار المجتمعي، ومحاربة جميع مظاهر التفرق والشقاق، لأن ذلك ينعكس إيجابا على الأمن الاجتماعي والروحي.

وإذا كانت التربية الروحية مطلب ملح لتحقيق الأمن الروحي، والأمن الروحي مصطلح حديث يشير إلى الحفاظ على العقيدة الدينية مما قد يعترضها من أخطار تأتي من الداخل أو الخارج، وصون الهوية الدينية من الآفات والتشوهات والتحريفات، فإن حداثته كمصطلح لا تنفي عنه أنه قديم الجنس حديث النوع، بمعنى أن جذوره عميقة في الكتاب والسنة، وبعيدة الغور في كتب الفقهاء.

من ذلك تقسيم النبي -صلى الله عليه وسلم- الدين في حديث جبريل -عليه السلام- إلى ثلاث رتب ، إسلام وإيمان وإحسان[1]، وما الإحسان إلا تربية روحية وسلوكية تسمو بالفرد المسلم ليكون مواطنا صالحا فاعلا في بناء مجتمعه، حريصا على أمنه واستقراره.

وللمالكية في كتبهم القِدْح المعلى في معالجة هذا الجانب لدى المسلم، لا سيما من خلال ما اصطلح عليه عندهم بكتاب الجامع، وهو نوع من التأليف يلحق بكتب متون الفقه، وربما أفرد مستقلا، يتناول فيه المؤلف ما على المرء المسلم أن يتحلى به من صفات وخِلال مؤخوذة من كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- لتصل به إلى مقام الإحسان.

وقد لخص ابن عاشر(ت:1040هـ) ما تحتويه كتب الفقه من علوم، ومنها بالطبع ما يتعلق بمعالجة الجانب الروحي والسلوكي بقوله:

في عقد الاشعري وفقه مالك*** وفي طريقة الجنيد السالك

(1) صحيح البخاري – كتاب الإيمان –باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة(1/ 33).

فالدين يعالج قضايا الإنسان المتشعبة بشيء من التوازن الدقيق، بين قواعد كلامية تضبط له عقله في فهمه وسعيه لتفسير كل ما له علاقة بالإله والكون والحياة، إلى أحكام فقهية عملية تضبط علاقاته ووشائجه المختلفة، مع ربه ونفسه والآخر، فأحكام أخرى روحية تربوية تعالج مشاكل النفس وخلجاتها، لتطهره من درنه المعنوي -بمقتضى آدميته- ونقصه وتقصيره الذي جبل عليه.

وسأسلط الضوء في هذه الورقة المتواضعة على إلماحات من تعاليم هذه التربية الروحية مما هو مذكورفي (رسالة) ابن أبي زيد القيرواني.

وهي أمور كثيرة ذكرها الشيخ-رحمه الله-، يوقن مطالعها بأنّ التزام كل فرد مسلم بها كفيل بأن يسبغ على المجتمع أمنا وسلما، لا على مستوى كل دولة على حدة بل على مستوى شعوب الأرض كلها.

وسيكون عنوان الورقة هو: **إلماحات من التربية الروحية في رسالة ابن أبي زيد القيرواني،** وستتضمن الورقة تمهيداومبحثين:

أما التمهيد: فأتكلم فيه عن معنى التربية الروحية، و عن رسالة ابن أبي زيد، وعن مؤلفها، وعن باب الجامع الذي اعتاد المالكية أن يلحقوه بكتبهم تأسيا بصنيع الإمام مالك(ت:179هـ) رحمه الله في كتابه (الموطأ).

وأما المبحث الأول: فهو عن كتاب الجامع من اختصار المدونة لابن أبي زيد، ومن الرسالة، ذكرت فيها محتواهما، وهو متشابه إجمالا مع محتوى كتاب الجامع عن جميع أئمة المالكية.

أما المبحث الثاني: فذكرته فيه إلماحات من التربية الروحية من جامع الرسالة، وهذه الإلماحات أتت بشكل شرح لعبارة للامام ابن أبي زيد -رحمه الله- وردت في كتاب الجامع، حول أحاديث نبوية عظيمة، إذا ما جعلها العبد المسلم نصب عينيه وحاكم نفسه إليها سنويا وشهريا وأسبوعيا ويوميا، اكتسب ولا شك التربية الروحية المنشودة.

وكذلك على الجهات الرسمية خصوصا منها المعنية بالشأن الديني أو التربوي أو الشبابي أن تركز على تضمين رسالتها وأنشطتها وبرامجها ما تحتويه هذه الأحاديث من معاني وفضائل لنصل بالمجتمع كله إلى التربية

الروحية التي أرادها الأسلام لمعتنقيه، حتى يعود علينا بذلك بالأمن الروحي الذي أسال الله سبحانه ان يعم وينتشر على أصقاع المعمورة كلها تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ومن هنا أخلص إلى سؤال البحث الذي ربما أكون قد أجبت عليهم إجمالا في السطور القلائل التي سلفت، ولكن الإجابة المفصلة تتجلى في المبحثين من هذه الورقة، والسؤال هو: هل نجد في كتب المالكية المعروفة بكتب المتون الفقهية ما به تحصل التربية الروحية لاتباع هذا المذهب السني؟ أحد المذاهب الربعة المتبوعة عن جمهور المسلمين.

والإجابة المفصلة ستأتي كما قلت في مبحثي الورقة، أما الأول فمن خلال استعراض القضايا والمسائل التي يتناولها باب الجامع عادة عندهم، وأما الثاني فمن خلال عرض نموذج لهذه التربية، كما ستتبين ذلك معي.

تمهيد

سأعرض في هذا التمهيد للمصطلحات التي وردت في عنوان الورقة، وهي:(التربية الروحية – الرسالة – مؤلفها).

أولاً: التربية الروحية: التربية: هي ما يقتضي تنمية القوى الفكرية والأخلاق الفاضلة لدى المتعلمين، أكان في المنزل أو المدرسة أو الجامعة. وهدفها إعداد الموطن الصالح، ونقل التراث والقيم من جيل إلى جيل[2]، وأما التربية الروحية فهي الاستقامة على التدين لدى العبد، بامتثال جملة من القيم والمعايير، وانتقال النفس متدرجة من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة، فالمؤمن يربي نفسه بما ألزمه الله تعالى، ويزيد في تقربه من الله فلا يقتصر على الواجبات بل يحيطها بسياج من السنن والنوافل والمستحبات، فيترقى في سلم الوصول إلى الله حتى يبلغ أعلى درجات العبودية[3]، وهي المرتبة التي عبر عنها النبي– صلى الله عليه وسلم– في حديث جبريل–عليه السلام– بالإحسان، وعرفها بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[4]، ولا شك أن هذه مرتبة عليا جدا من المراقبة واستحضار عظمة الله.

ثانيا:الرسالة: كتاب مدرسي مختصر ألفه ابن أبي زيد(386هـ)، يعد من أوائل ملخصات المذهب المالكي، التي صيغت بأوضح عبارة وأدق إشارة، وهو موجه إلى جيل الشباب لتنشئته تنشئة إسلامية تتخذ من القران الكريم والسنة النبوية منهجا فكريا ومصدرا أساسيا للأحكام، وهو من أشهر المختصرت التي تبارى الشيوخ في شرحها ونظمها، وتنافس الطلاب في حفظها وفهمها[5]، ولندع ابن ابي زيد–رحمه الله– يقدم لنا تعريفا بمتنه الفقهي المبارك –الذي لاقى قبول واسعا حتى قال فيه العالم الرباني زروق(899هـ)–رحمه الله– من التزمها علماً وعملاً فتحت له أبواب، فكان ذا أربعة أو أحدها أو اثنين أو ثلاثةأحدها: علم حاصل؛ أو مال واصل، أو صلاح كامل، أو جاه فاضل حسبما استقرئ ذلك في الغالب–[6]:

---

(2) معجم مصطلحات الفكر العربي والإسلامي، جيرار جهامي و عايده جهامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط. الأولى، 2012م، ص: 64.

(3) التربية الروحية في القران الكريم والسنة النبوية، د. عبدالعظيم الدخري، بحث منشور في مجلة جامعة كردفان – العدد الرابع – يونيو 2014م.

(4) صحيح البخاري – كتاب الإيمان –باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة(1/ 33).

(5) فقه الرسالة متنا ونظما وتعليقا، د. الهادي الدرقاش، دار قتيبة، ط. الأولى، 1989م، ص: 9.

(6) شرح زروق، أحمد بن أحمد البرنسي على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: 1/ 3.(الجمالية)

أمابعد أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه.فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك؛ من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين؛ لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك؛ لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إياك[7].

ثالثا: مؤلف الرسالة: هو أبو محمَّد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النَفْزِي القيرواني-رحمه الله-:إمام المالكية في وقته، لخص المذهب ولمَّ نشره وذبّ عنه، له تآليف: منها كتاب النوادر والزيادات على المدونة مشهور، ومختصر المدونة مشهور، وعلى كتابيه هذين المعول في المذهب، وكتاب الذب على مذهب مالك، وكتاب الرسالة مشهور، وكلها كتب مطبوعة، والرسالة أول تآليفه ووقع التنافس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب.وكل تآليفه مفيدة بديعة عزيزة ترجمته عالية وشهرته تغني عن التعريف به. توفي سنة 386 هـ[996 م] وسنه 76 ودفن بداره بالقيروان وقبره معروف متبرك به[8].

(7) الرسالة الفقهية على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس، عبدالله بن أبي زيد القيرواني(386هـ)، تحقيق: أحمد عبدالكريم نجيب، دار المذهب للطباعة والنشر والتوزيع ومركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط. الأولى، 2016م، ص: 9-10.

(8) ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك، عياض السبتي، تح: مجموعة من العلماء، الأوقاف المغربية، ط:2، 1983 (6/ 214)، والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم ابن فرحون، مطبعة شقرون، ط: 1، 1351هـ(136)، و شجرة النور في طبقات المالكية، محمد مخلوف، دار الفكر(1/ 96) ترجمة رقم:227.

المبحث الأول: **كتاب الجامع من اختصار المدونة لابن أبي زيد، ومن الرسالة:**

قال ابن العربي (543هـ) في (القبس):هذا كتاب اخترعه مالك رحمه الله في التصنيف. لفائدتين:

أحدهما: أنه خارج عن رسم التكليف المتعلق بالأحكام التي صنفها أبوابًا ورتبها أنواعاً.

والثاني: أنه لما لحظ الشريعة وأنواعها ورآها منقسمة إلى أمر ونهي، وإلى عبادة ومعاملة، وإلى جنايات وعبادات، نظمها أسلاكاً، وربط كل نوع بجنسه، وشذت عنه من الشريعة معان مفردة لم يتفق نظمها في سلك واحد، لأنها متغايرة المعاني، ولا أمكن أن يجعل لكلٍ منها باباً لصغرها، ولا أراد هو أن يطيل القول فيما يمكن إطالة القول فيها فجمعها أشتاتًا ،وسمّى نظامها كتاب الجامع فطرق للمؤلفين ما لم يكونوا قبل ذلك به عالمين في هذه الأبواب كلها[9].

إذن فالجامع ترجمة من التراجم التي ابتكرها الإمام رحمه الله في موطئه، وسلك مهيعه من بعده اتباع مذهبه، فبعضهم ألحق كتاب الجامع بمؤلفه، وبعضهم أفرده في تأليف مستقل، وقد تتبع ذلك أخي د. محمد العلمي في كتابه القيم الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي[10].

---

(9) القبس في في شرح موطأ مالك، ابن العربي، محمد بن عبدالله(543هـ)، تحقيق د. محمد عبدالله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، 1992م (3/ 1082) .

(10) الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، د. محمد العلمي، الرابطة المحمدية للعلماء، ط. الأولى، 2012، ص:437، وقد حصر المؤلفات المفردة دون التي ألحقها أصحابها بمؤلفاتهم، ككتاب الجامع لابن أبي زيد الذي ألحقه باختصاره للمدونة، واستعرض د. المختار التليلي في تقديمه لجامع ابن رشد الجد بعضا ممن ألف كتاب الجامع من المالكية، سواء منهم من اتبع طريقة الإمام فألحقه بمؤلفه، ومن أفرده بتأليف مستقل(الجامع من المقدمات، لابن رشد الجد، محمد بن أحمد(520هـ)، تحقيق: د. المختار بن الطاهر التليلي، دار الفرقان بعمان، ط. الأولى، 1985م، ص:38 – 39).

.

وهي ترجمة صنعها مالك ليدرج تحتها أحاديث كثيرة مواضيعها متشعبة، فلو أنه عنون لكل حديث بما يناسبه على حدة لطال الأمر، فاستغنى عن هذه الإطالة بعنوان جامع لينتظها سلكها في ترجمة واحدة، ويغلب على أحاديث هذه الترجمة أنها تتعلق بالآداب والأخلاق وغيرها من الأمور التي اصطلح عليها المعاصرون بالتربية الروحية، وأطال النفس الإمام الغزالي(505هـ) في معالجتها في مختلف كتبه، لاسيما منها (الإحياء).

وسأقتصر في هذا المبحث على استعراض منهج الإمام ابن أبي زيد في تناول باب الجامع، وذلك في كتابيه (اختصار المدونة) و(الرسالة):

أولا: **اختصار المدونة**:مما تجدر الإشارة له أن الأصل الذي اختصره أبو محمد ابي أبي زيد وهو(المدونة) لم يلحق به كتاب الجامع، لذلك لا نجد كتاب الجامع في اختصار البَرادَعي أو:البَراذَعي(438هـ تقريبا)، وهو من أشهر الاختصارات وأكثرها قبولا، حتى استبدل بالأصل في مرحلة تاريخية، ولعل صنيع ابن أبي زيد بإضافة كتاب الجامع إلى اختصاره يقدم لنا تفسيرا عن سبب إهمال المالكية لمختصره مع جلالة قدره وعلو كعبه وارتفاع مرتبته عن مرتبة أبي سعيد البرادعي، لأنهم رأوا في صنيع الأخير التزاما أكثر بالأصل المختصر.

ومن المختصرين الذين صنعوا صنيع أبي محمد: الشارِمْساحي(669هـ) فإنه ألحق باختصاره المسمى(نظم الدرر) [11]، وقد طبع الكتاب فيما وقفت عليه ثلاث طبعات، اثنتين منهما طبع كتاب الجامع وحده مستلا من المخطوطة[12]، وواحدة طبع فيها مع الكتاب كله، وهو اختصار المدونة[13].

---

(11) نظم الدرر في اختصار المدونة، عبدالله بن عبدالرحمن الشَّارِمْساحي، تحقيق: د. خالد محمد الحوسني، دار ابن حزم، ط. الأولى، 2013م، ص:730.

(12) الطبعة الأولى بتونس من تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، سنة 1402هـ/ 1982م، ولم استعن بها في هذا البحث، والثانية من تحقيق عبدالمجيد تركي طبعها بدار الغرب الإسلامي، وقد رجعت لها، وللفائدة فهي مثال جيد جدا على سوء التحقيق.

(13) طبع مركز نجيبويه، بالقاهرة، تحقيق: د. أحمد عبدالكريم نجيب، 2013م، والتحقيق والإخراج سيئان أيضا، إلا أنه دون الذي قبله في السوء.

وفي العنوان الذي أثبته عبدالمجيد تركي ما يشير إلى محتوى ومصادر المادة التي أودعها المؤلف في هذا الكتاب، فالعنوان هو: الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك، مختصر من السماعات عن مالك ومن الموطإ وغيره من الكتب مضاف إلى مختصر المدونة، فمحتواه هو هذه الأمور المتفرقة من السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغيرها، ومصدرهذا المحتوى هو (الموطأ) والأسمعة[14]، وهذا العنوان مثبت على غلاف النسخ المخطوطة التي أخرج الكتاب عنها.

وما سأستعرضه هنا لن يعدو ذكر الأبواب العامة التي تحدث حولها، لنصل إلى الاتفاق مع ابن العربي فيما شرح به محتوى كتاب الجامع عند الإمام مالك والمالكية من بعده، وهذه الأبواب إجمالا هي:

- السنن والبدع.
- مبعثه وعمره ونسبه وصفته وبنيه والعشرة المبشرون.
- فضل المدينة والكعبة وإجلاء اليهود.
- العلم.
- الفتن.
- الدعاء
- الصمت والعزلة والتواضع.
- التجمل والعجب والرياء.
- الورع والمكاسب.
- الفطرة.
- سترة العورة.

(14) المقصود ما قيده تلاميذ الإمام عنه في الفتاوى والفقه، وهي التي رواها تلاميذهم عنهم من بعدهم، وهي اللبنة الأولى لتقييد المذهب قبل تحريره وتمحيصه، وبالتتبع نجد أنها المادة الأولى التي بنيت عليها الكتب التي عرفت فيما بعد بالأمهات، كالمدونة والعتبية والواضحة والموازية وغيرها(الدليل التاريخي للعلمي ص: 33 بتصرف).

- اتخاذ الكلاب والحيوان.
- الرفق والنساء والجار.
- الاحتساب.
- السفرة والتجارة والرؤيا.
- الشعر والغناء والأنساب.
- الهجرة والمغازي والتاريخ.

هذه بعض العناوين التي وردت في كتاب الجامع، وبالنظر إليها نجدها بالفعل من أبواب متفرقة لا يمكن أن ينخرط سلكها تحت ترجمة واحدة أليق مما صنعه الإمام مالك عندما بوب عليها بلفظ كتاب الجامع، ومن أسباب ضمي الحديث عن كتاب الجامع من اختصار (المدونة) إلى الحديث عن جامع كتاب (الرسالة) لنتبين تماثل الكتابين في المحتوى، ولأن ابن ابي زيد لم يسمه في (الرسالة) بالجامع، ولا مشاحة في الاصلاح إذ العبرة للمحتوى والمضمون.

ثانيا: **الرسالة**:ألحق المؤلف بباب الفرائض المعروف بأنه آخر الأبواب الفقهية في مصنفات المالكية الفقهية عدة أبواب محتواها هو الموجود في باب الجامع لديهم عادة، ولكنه كما اسفلت لم يترجم له بباب أو كتاب الجامع، وهذه الأبواب هي:

- جمل من الفرائض والسنن الواجبة والرغائب.
- الفطرة والختان وحلق الشعر واللباس وستر العورة وما يتصل بذلك.
- الطعام والشراب.
- السلام والاستئذان والتناجي والقراءة والدعاء.
- ذكر الله والقول في السفر.
- التعالج وذكر الرقى والطيرة والنجوم والخِصاء والوسم والكلاب والرفق بالمملوك.
- الرؤيا والتثاؤب والعطاس واللعب والنرد.

- السبق بالخيل[15] والرمي وغيرذلك.

ونلحظ هنا الفرق بين محتوى كتاب الجامع في اختصار (المدونة) وبين محتواه في (الرسالة)، فهو في اختصار (المدونة) أوسع نطاقا، ولعل الشريحة المستهدفة بتأليف (الرسالة) هو سبب هذا الفرق، فهي كما هو معلوم ألفت للناشئة والأطفال.

وفي آخر حديثه في باب جمل من الفرائض والسنن الواجبة والرغائب ذكر عبارة تدل على موسوعية هذا الرجل، وإلى تضلعه من علوم الحديث[16]، ولأهمية هذه العبارة، وعظيم ما انطوت عليه من فائدة ونفع اقتبسها الإمام النووي (676هـ) في شرحه على (صحيح) مسلم(261هـ)، وحلّى ابن أبي زيد بما هو أهله بقوله: "وقد قال الإمام الجليل أبو محمد -عبد الله بن أبي زيد إمام المالكية بالمغرب في زمنه-: جماعُ آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه». وقوله- صلى الله عليه وسلم- للذي اختصر له الوصية: «لا تغضب». وقوله -صلى الله عليه وسلم -:«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[17]. والله أعلم.

---

(15) في المتون الفقهية تذكر هذه الأحكام في باب المسابقة.

(16) ومطالع كتابه (الذب عن مذهب مالك) يلمس تضلعه من علم الأصول وعلم الخلاف العالي وقواعد الجدل والمناظرة، وهذا دأب أئمتنا-رحمهم الله- من أمثاله، ومع ذلك لا تجدهم يدّعون الاجتهاد ويطّرحون أقوال ومذاهب من سبقهم، كما هو حال كثير من ابناء هذا العصر -هداهم الله- مع تفشي الجهل وزيادة العماية، وأئمتنا ما تركوا ذلك قصورا منهم عن بلوغ تلك المرتبة، ولا تقصيرا عما يجب عليهم، ولكنهم رأوا أنهم كُفُوا مؤنة ذلك بصنيع أئمة المذاهب المتبوعين، وأن واجب الوقت عليهم هو تحرير ما نقل عنهم وتمحيصه والتدليل له، وتقديم ما حقه التقديم وتأخير ما حق ذلك كذلك، بناء على معايير معلومة للمتخصصين.

(17) شرح النووي على صحيح مسلم(1/ 331 وما بعدها) الأميرية ببولاق، وسيأتي تخريج الأحاديث، وسقط من نقل النووي عبارة(وأزمته) فلعلها ليست في النسخة التي اعتمدها، والله أعلم.

وهذه مسألة عُني بها بعض المحدثين، فتيسيرا منهم على العبد المسلم فإنهم قاموا بإرجاع جُلّ ما ورد من كلام النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى عدد محصور من الأحاديث ليجعلها نصب عينيه ويحاكم نفسه إليها، وينظر أين هو منها قربا وبعدا[18]؟

قال زروق: جمع النواوي من الأحاديث التي قيل إنها أصل الدين نحوا من ثلاثين فاعرف ذلك وبالله التوفيق[19].

وبالنظر إلى الأحاديث التي اختارها ابن أبي زيد وأقره عليها النووي وهما هما، نجد أنها بالفعل احتوت على خصال الخير كلها، والملتزم بها آت بما عليه في باب الآداب والسنن والفضائل، كما أنه بذلك يكون مبتعدا على النقائص وما يشينه وما يجب عليه أن يتركه إذا أراد أن يبلغ مرتبة الإحسان.

---

(18) المراد بذلك طبعا الآحاديث المتعلقة بالآداب والفضائل وبترك بعض المحرمات والمكروهات وخوارم المروءة ، لا جميع السنة النبوية لاحتواء بعضها على أحكام فقهية تفصيلية، وعلى أخبار سالفة ولاحقة، وعلى غيبيات لا تفي بمحتواها الأحاديث التي ذكرها العلماء رحمهم الله، وقد بحث هذه الأحاديث وتحديدها باستفاضة ابن مرزوق الجد في شرحه لعمدة الأحكام.(تيسير المرام 1/ 334).

(19) زروق 2/ 346.

المبحث الثاني: **نماذج من الإلماحات في رسالة القيرواني.**

قال ابن أبي زيد-رحمه الله تعالى-في آخر رسالته في باب جملٍ من الفرائض والسنن الواجبة والرغائب:" جماعُ آداب الخير وأزمّتُه تتفرع عن أربعةِ أحاديثَ، قول النبي -عليه السلام-: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»، وقوله عليه السلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقوله عليه السلام للذي اختصر له في الوصية: «لا تغضب»، وقوله عليه السلام: «المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه».

الحديث الأول: حدثني حرملةُ بنُ يحيى، أنبأنا ابنُ وهبٍ، قال: أخبرني يونسُ، عن ابن شهابٍ، عن أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمن، عن أبي هريرةَ، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» [20].

وقوله: " فليقل خيرا أو ليصمت ": أي ليقل خيرا يثاب عليه، أو يصمت عن الشر فيسلم. أي عليه إمساك لسانه إلا في خير ينفعه، وهو مثل الحديث الآخر: «من صمت نجا» [21]، فعرفك أن من آمن بالله واليوم الآخر فليزم هذه الأخلاق الحسنة[ومنها] إمساك لسانه إلا في خير ينفعه، وقد قال الله تعالى: [ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد][ق: ١٨][22]

وقوله: «أو ليصمت»: أي: يصمت عن الشر وما لا يعنى من الكلام. وقد تكون الواو للتقسيم، أي: يقول الخير ويشغل به لسانه فيؤجر ويغنم، فإن لم يفعل هذا فليصمت ويسلم. وقد تكون " أو " هنا بمعنى الواو، أي: يقول الخير ويصمت عن الشر [23]

(20) صحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (1/ 49) العامرة بإسطنبول.

(21) جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي (279هـ)-أبواب صفة القيامة والرقائق والورع- باب حديث: من كان يؤمن بالله فليكرم ضيفه، ص 569، حديث رقم:2051، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لَهِيعة، تحقيق : صالح عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام – جدة ، ط. الأولى 1420هـ – 1999م، مجلد واحد.

(22) إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى اليَحْصُبي(544هـ)، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، ط:1، 1998م(1/ 286– 287)

(23) إكمال المعلم (6/ 22).

وفي النووي على مسلم قال أهل اللغة: يقال: صمت يصمت بضم الميم صمتا وصموتا وصمات، أي: سكت. قال الجوهري: ويقال أصمت بمعنى صمت، والتصميت السكوت، والتصميت أيضا التسكيت.

وأما قوله -صلى الله عليه وسلم-: «فليقل خيرا أو ليصمت» فمعناه أنه إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيرا محققا يثاب عليه -واجبا أومندوبا-فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورا بتركه مندوبا إلى الإمساك عنه مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه وهذا يقع في العادة كثيرا أو غالبا، وقد قال الله تعالى: [ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد][ق: ١٨].

واختلف السلف والعلماء في أنه هل يكتب جميع ما يلفظ به العبد وإن كان مباحا لا ثواب فيه ولا عقاب لعموم الآية أم لا يكتب إلا ما فيه جزاء من ثواب أو عقاب؟ وإلى الثاني ذهب ابن عباس-رضي الله عنهما-وغيره من العلماء، وعلى هذا تكون الآية مخصوصة، أي: ما يلفظ من قول يترتب عليه جزاء. وقد ندب الشرع إلى الإمساك عن كثير من المباحات لئلا ينجر صاحبها إلى المحرمات أو المكروهات.

وقد أخذ الإمام الشافعي(204هـ) -رضي الله عنه-معنى الحديث فقال: إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم، وإن ظهر له فيه ضرر أوشك فيه أمسك. وقد قال الإمام الجليل أبو محمد -عبد الله بن أبي زيد إمام المالكية بالمغرب في زمنه-: جماعُ آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه». وقوله-صلى الله عليه وسلم-للذي اختصر له الوصية: «لا تغضب». وقوله -صلى الله عليه وسلم -: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [24]. والله أعلم.

ورُوّينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري(465هـ) -رحمه الله-قال: الصمت بسلامة، وهو الأصل، والسكوت في وقته صفة الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال. قال: وسمعت أبا علي الدقاق(412هـ) يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس. قال: فأما إيثار أصحاب المجاهدة السكوت فلما علموا ما في الكلام من الآفات، ثم ما فيه من حظ النفس، وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميز من بين

---

(24) سأخرج هذه الأحاديث كل في موضعه.

أشكاله بحسن النطق وغير هذا من الآفات، وذلك نعت أرباب الرياضة. وهو أحد أركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق. ورُوِّينا عن الفضيل بن عياض(187هـ) –رحمه الله–قال: من عَدّ كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه. وعن ذي النون(245هـ) –رحمه الله–: أصون الناس لنفسه أمسكهم للسانه. والله أعلم. [25]

وقوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليصمت ... » الحديث ، يعني : من كان يؤمن بالله الإيمان الكامل، المنجي من عذاب الله، الموصل إلى رضوان الله؛ لأن من آمن بالله تعالى حق إيمانه خاف وعيده، رجاء ثوابه، ومن آمن باليوم الآخر، استعد له، واجتهد في فعل ما يدفع به أهواله ومكارهه، فيأتمر بما أمر به، وينتهي عما نهى عنه، ويتقرب إلى الله تعالى بفعل ما يقرب إليه، ويعلم أن من أهم ما عليه ضبط جوارحه التي هي رعاياه ، وهو مسؤول عنها جارحة جارحة؛ كما قال تعالى: [ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا][الإسراء: ٣٦]، وإن من أكثر المعاصي عددا، وأيسرها فعلا: معاصي اللسان، وقد استقرأ المحاسبون لأنفسهم آفات اللسان، فوجدوها تنيف على العشرين.

وقد أرشد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذا جملة؛ فقال: وهل يكب الناس على مناخرهم، في النار إلا حصائد ألسنتهم، وقال:

(25) شرح النووي على صحيح مسلم(1/ 331 – 335) الأميرية ببولاق.

«كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ذكر الله تعالى، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر»، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يلقي لها بالا، يهوي بها في النار سبعين خريفا». فمن علم ذلك، وآمن به حق إيمانه، اتقى الله في لسانه، فتكلم ليغنم، أو سكت ليسلم [26]

وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»؛ يعني: أن المصدق بالثواب والعقاب المترتبين على الكلام في الدار الآخرة لا يخلو من إحدى الحالتين. إما أن يتكلم بما يحصل له ثوابا وخيرا فيغنم، أو يسكت عن شيء يجلب له عقابا وشرا فيسلم. وعلى هذا: فتكون «أو» للتنويع والتقسيم. وقد أكثر الناس في تفصيل آفات الكلام، وهي أكثر من أن تدخل تحت حصر ونظام.

وحاصل ذلك: أن آفات اللسان أسرع الآفات للإنسان، وأعظمها في الهلاك والخسران. فالأصل: ملازمة الصمت إلى أن تتحقق السلامة من الآفات، والحصول على الخيرات، فحينئذ تخرج تلك الكلمة مخطومة وبأزمة التقوى مزمومة. والله الموفق [27].

---

(26) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أحمد بن عمر القرطبي(656هـ) تحقيق: مجموعة من العلماء، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط:1، 1996م.(1/ 229)

(27) المفهم(5/ 199)

الحديث الثاني: وحدثني عن مالكٍ، عن ابن شهابٍ، عن عليٍّ بن حسين بن عليٍّ بن أبي طالبٍ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» [28].

قال: أبو عمر ابن عبد البر(463هـ): كلامه هذا -صلى الله عليه وسلم- من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة، ومن كلام النبوة وحكمتها وهو جامع لمعان جمة من الخير، وهو مما لم يقله أحد قبله والله أعلم، إلا أنه روي عنه -عليه السلام- أنه قال في صحف إبراهيم: من عَدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، عن أبي ذر(32هـ)-رضي الله عنه-قلت: يا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ما كانت صحف إبراهيم-عليه السلام-: كانت أمثالا كلها فذكر الحديث، قال: وكان فيها وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

ووقف رجل على لقمان الحكيم وهو في حلقة عظيمة قال: ألست عبد بني الحسحاس؟ قال: بلى، قال: فأنّى بلغت ما أرى؟ قال: قدر الله، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني، وذكر مالك في موطئه: أنه بلغه أنه قيل للقمان: ما بلغ بك ما نرى؟ يريدون الفضل. فقال: صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني [29].

وعن الحسن(110هـ) قال: من علامة إعراض الله عز وجل عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه.

وقال سابق(100هـ):

والنفس إن طلبت ما ليس يعنيها*** جهلا وسخفا تقع فيما يُعنِّيها

وقال الحسن بن حميد(؟):

---

(28) الموطأ-كتاب الجامع – باب ما جاء في حسن الخلق (2/ 293) حديث رقم (2583) طبعة المجلس العلمي الأعلى بالمغرب، أرسله مالك، ووصله غيره، ينظر للتوسع: الموطأ برواية يحيى تحقيق د. عواد بشار معروف (2/ 485 – 486) طبعة دار الغرب، والمسالك لابن العربي (7/ 245 – 256).

(29) الموطأ-كتاب الجامع – باب ما جاء في الصدق والكذب (2/ 451) حديث رقم (2784) طبعة المجلس العلمي الأعلى.

إذا عقل الفتى استحيا واتقى**** وقلّت من مقالته الفضول

قال أبو عمر روينا عن أبي داود السجستاني(275هـ) -رحمه الله – أنه قال: كتبت عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-خمسمائة ألف حديث، الثابت منها أربعة آلاف حديث، وهي ترجع إلى أربعة أحاديث، وهي أصول السنن في كل فن:

أحدها: حديث عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنه قال: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» (30).

والثاني: حديث النعمان بن بشير-رضي الله عنه-عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: «الحلال بين، والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه» (31).

والثالث: حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (32).

والرابع حديث سهل بن سعد-رضي الله عنه-عن النبي -صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (33).

(30) البخاري- كتاب بدء الوحي- باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم (1/ 14) حديث رقم (1).

(31) مسلم – باب البيوع- باب أخذ الحلال وترك الشبهات (5/ 50).

(32) تقدم تخريجه.

(33) سنن ابن ماجة- أبواب الزهد- باب الزهد في الدنيا، ص: 598، حديث رقم: 4102، مجلد واحد.

.

قال عياض: وقد روى فيها مكان حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، حديث: " «لا يكون المؤمن مؤمنا» [34].

وقد نظمها أبو الحسن طاهر بن مفوز(484هـ) في بيتين بقوله:

عمدة الدين عندنا كلمات **** أربع من كلام خير البريه

اتق الشبهات وازهد[ن] ودع **** ما ليس يعنيك واعملن بنيه [35].

وعن محمد بن عجلان(148هـ) أنه كان يقول: إنما الكلام أربعة، أن تذكر الله، أو تقرأ القرآن، أو تسأل عن علم فتخبر به، أو تتكلم فيما يعنيك من أمر دنياك [36].

قال الباجي(494هـ): الإسلام يؤتى به على أحسن وجوهه مما يتقرب به إلى الطاعات واجتناب المنكرات، ومن حسنه أن يترك الإنسان ما لا يعنيه، فيشتغل به وربما شغله عما يعنيه، أو أداه إلى ما يلزمه اجتنابه. والله أعلم وأحكم.

وقد قال حمزة الكِناني(357هـ): هذا الحديث ثلث الإسلام، والثلث الآخر «إنما الأعمال بالنيات»، والثلث الثالث «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، فمن ترك ما تشابه كان أبرأ لدينه وعرضه».

---

(34) سيأتي تخريجه.

(35) إكمال المعلم (5/ 284).

(36) التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر(9/ 199 وما بعدها) طبعة المغرب، والاستذكار(9/ 572) طبعة مؤسسة النداء.

وفي (العتبية) من سماع ابن القاسم(191هـ) عن مالك في رجل دخل على عبد الله بن عمر(73هـ) وهو يخصف نعليه قال: يا أبا عبد الرحمن لو ألقيت هذا النعل، وأخذت آخر جديدا، قال له: نعلي جاءت بك هاهنا، أقبل على حاجتك [37].

قال ابن العربي في (المسالك): فيه لعلمائنا تأويلان: أحدهما: قيل: هو فيما لا يجلب به نفعا ولا يدفع به مضرة، وهو مما لا يعني، وهذا بعيد.

وكأنه أراد أنه من أكثر من فعل المباحات وقع في المكروهات، ومن وقع في المكروهات خيف عليه الوقوع في المحرمات، فالعالم يقدر أن يثاب على كل فعل إذا قصد به وجه الله تعالى؛ لأنه إذا أكل نوى التقوية على طاعة الله وابتغاء الحلال، وإذا لبس قصد ستر العورة، وإذا جامع قصد بذلك العصمة لنفسه وأهله وغير ذلك. وأما من قصد من المباحات الشهوة خاصة، فلا ثواب له على ذلك، إلا أن يقول: أعف نفسي عن المحارم.

وفي هذا الحديث من كلام النبوة وحكمتها ما لا ينحصر، وهو جامع لمعان جمة من الخير [38].

وقال في (القبس): إشارة إلى ترك الفضول، لأن المرء لا يقدر أن يستقبل باللازم فكيف يتعداه إلى الفاضل[39].

قال زروق: وحاصله الحض على الصمت عما لا يعني وعدم السكوت فيما يعني.

قال علماؤنا: وإذا استوى الكلام والصمت في المنفعة فالصمت أولى وما ترجح منها فحكم الوقت له وقد قال مالك رحمه الله تعالى من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه [40].

---

(37) المنتقى للباجي 7/ 211 – 212 و البيان والتحصيل17/ 485و18/ 280.

(38) المسالك في شرح موطأ مالك (7/ 246).

(39) القبس 3/ 1095 – 1096.

(40) زروق3/ 346.

قال الزُّرْقاني(1122هـ): «ما لا يعنيه»: بفتح أوله، من عناه كذا إذا: تعلقت عنايته به، وكان من قصده يعني ترك الفضول كله على اختلاف أنواعه. قال ابن العربي: لأن المرء لا يقدر أن يشتغل باللازم فكيف يتعداه إلى الفاضل؟ انتهى.

وفي إفهامه أن من قبح إسلام المرء أخذه ما لا يعنيه، لأنه ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكن تعويض فائته فيما لم يخلق لأجله، فإن الذي يعنيه الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وما تعلق بضرورة حياته في معاشه من شبع وروي وستر عورة وعفة فرج ونحو ذلك مما يدفع الضرورة دون مزيد النعم، وبهذا يسلم من جميع الآفات دنيا وأخرى، فمن عبد الله على استحضار قُرْبِهِ من ربه أو قرب ربه منه فقد حسن إسلامه.

قال الطِّيبي(743هـ): «من»: تبعيضية، ويجوز أنها بيانية، وآثر التعبير بالإسلام على الإيمان، لأنه الأعمال الظاهرة، والفعل والترك إنما يتعاقبان عليها، وزاد «حسن»: إيماء إلى أنه لا يتميز بصورة الأعمال فعلا وتركا إلا إن اتصف بالحسن، بأن توفرت شروط مكملاتها فضلا عن المصححات، وجعل ترك ما لا يعني من الحسن مبالغة.

قال بعضهم: ومما لا يعني تعلم ما لا يهم من العلوم وترك الأهم منه، كمن ترك تعلم العلم الذي فيه صلاح نفسه واشتغل بتعلم ما يصلح به غيره كعلم الجدل، ويقول في اعتذاره: نيتي نفع الناس، ولو كان صادقا لبدأ باشتغاله بما يصلح به نفسه وقلبه من إخراج الصفات المذمومة من نحو حسد ورياء وكبر وعجب وترؤس على الأقران وتطاول عليهم، ونحوها من المهلكات (41).

قال زروق: وما لا يعنيه هو ما لا تدعو الضرورة والحاجة إليه وهو الفضول أيضا ويعم الأقوال والأفعال والعوارض القلبية (42).

---

(41) شرح الزرقاني على الموطأ 4/ 253.

(42) زروق2/ 346.

الحديث الثالث: حدثني يحيى بن يوسف، أخبرنا أبو بكر هو ابن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رجلا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مرارا، قال: «لا تغضب» [43].

قال الخطابي(388هـ)- رحمه الله-: معنى قوله: «لا تغضب» اجتنب أسباب الغضب، ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه، لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة.

وقال غيره: ما كان من قبيل الطبع الحيواني لا يمكن دفعه فلا يدخل في النهي لأنه من تكليف المحال. وما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة فهو المراد. وقيل: معناه لا تغضب، لأن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب، فالذي يتواضع حتى يذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب. وقيل معناه لا تفعل ما يأمرك به الغضب.

وقال ابن بطال(449هـ) -رحمه الله-في الحديث الأول: إن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو، لأنه صلى الله عليه وسلم جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة. وقال غيره: لعل السائل كان غضوبا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر كل أحد بما هو أولى به فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب.

وقال ابن التين(611هـ) -رحمه الله-: جمع صلى الله عليه وسلم في قوله «لا تغضب» خير الدنيا والآخرة، لأن الغضب يؤول إلى التقاطع، ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين. وقال البيضاوي(685هـ) -رحمه الله-: لعله لما رأى أن جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته ومن غضبه وكانت شهوة السائل مكسورة فلما سأل عما يحترز به عن القبائح نهاه عن الغضب الذي هو أعظم ضررا من غيره، وأنه إذا ملك نفسه عند حصوله كان قد قهر أقوى أعدائه انتهى.

ويحتمل أن يكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأن أعدى عدو للشخص شيطانه ونفسه، والغضب إنما ينشأ عنهما، فمن جاهدهما حتى يغلبهما -مع ما في ذلك من شدة المعالجة-كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضا أقوى.

---

(43) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب الحذر من الغضب (4/ 122) حديث رقم: 6116 (السلفية).

وقال ابن حبّان-رحمه الله-(354هـ) -بعد أن أخرجه-: أراد لا تعمل بعد الغضب شيئا مما نهيت عنه لا أنه نهاه عن شيء جبل عليه ولا حيلة له في دفعه.

قال: "لا تغضب" فردد مرارا أي فرجع ترجيعا مرارا أي حيث يقول له أوصني يعتقد أن عدم الغضب ليس أمرا يعتد به فقال: "لا تغضب" مفيدا له أن عدم الغضب أمر عظيم يعتد به لما يترتب على الغضب من المفاسد الدنيوية والأخروية وعلى عدمه من المصالح والثمرات الأخروية ما لا يحصى لأن الله تعالى خلق الغضب من النار وعجنه بطينة الإنسان فمهما نوزع في غرض من أغراضه اشتعلت نار الغضب فيه وفارت فورانا يغلي منه دم القلب وينتشر في العروق فيرتفع إلى أعالي البدن ارتفاع الماء في القدر ثم ينصب في الوجه والعينين حتى يحمرا منه إذ البشرة لصفائها كالزجاجة تحكي ما وراءها وغرض الشارع صلوات الله عليه أي لا تعمل موجبات الغضب لا أنه ينهاه عن شيء جبل عليه لأنه لا يمكن إخراجه عن جبلته[44].

ويعين على ترك الغضب استحضار ما جاء في كظم الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان كما تقدم في حديث سليمان بن صُرَد(65هـ) -رحمه الله- ([45]، وأن يتوضأ كما تقدمت الإشارة إليه في حديث عطية(؟) والله أعلم. وقال الطوفي (716هـ): أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له. فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جل وعلا، وهو خلاف العبودية.

(44) الثمر الداني ص: 528.

(45) يريد حديث: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، قال: حدثني عدي بن ثابت، قال: سمعت سليمان بن صرد، رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب أحدهما، فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم كلمة، لو قالها لذهب عنه الذي يجد» فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «تعوذ بالله من الشيطان» فقال: أترى بي بأس، أمجنون أنا، اذهب ، وهو في صحيح البخاري.

قلت: وبهذا يظهر السر في أمره -صلى الله عليه وسلم-الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان، لأنه إذا توجه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان أمكنه استحضار ما ذكر وإذا استمر الشيطان متلبسا متمكنا من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك، والله أعلم [46].

(46) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت 852هـ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت(10/ 521).

الحديث الرابع: حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [(1)].

المحبة في اللغة: ميل القلب إلى الشيء لتصور كمال فيه بحيث يرغب فيما يقربه إليه من حبه يحبه فهو محبوب، بكسر عين الفعل في المضارع.

قال النووي: المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، وقد تكون بحواسه، كحسن الصورة، أو بفعله إما لذاته كالفضل والكمال، وإما لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضرر. انتهى ملخصا.

والمراد أيضًا أن يحب أن يحصل لأخيه نظير ما يحصل له لا عينه سواء كان في الأمور المحسوسة أو المعنوية وليس المراد أن يحصل لأخيه ما حصل له لا مع سلبه عنه ولا مع بقائه بعينه له إذ قيام الجوهر أو العرض بمحلين محال.

وإنما المحبة مطالعة المنة من رؤية إحسان أخيه وبره وأياديه ونعمه المتقدمة التي ابتدأ بها من غير عمل استحقها به، وستره على معايبه، وهذه محبة العوام، قد تتغير بتغير الإحسان، فإن زاد الإحسان زاد الحب وإن نقصه نقصه، وأما محبة الخواص فهي تنشأ من مطالعة شواهد الكمال لأجل الإعظام والإجلال ومراعاة حق أخيه المسلم، فهذه لا تتغير لأنها لله تعالى لا لأجل غرض دنيوي. ويقال: المحبة ههنا هي مجرد تمني الخير لأخيه المسلم، فلا يعسر ذلك إلا على القلب السقيم غير المستقيم.

وقال بعض العلماء: ظاهر هذا الحديث طلب المساواة وحقيقته تستلزم التفضيل لأن كل أحد يحب أن يكون أفضل من غيره فإذا أحب لأخيه مثله فقد دخل في جملة المفضولين، قلت: أقر القاضي عياض هذا وفيه نظر، إذ المراد الزجر عن هذه الإرادة لأن المقصود الحث على التواضع فلا يحب أن يكون أفضل من غيره فهو مستلزم للمساواة. ويستفاد ذلك من قوله تعالى: [تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا

(1) صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (1/ 21) حديث رقم: 13 (السلفية).

يريدون علوا في الأرض ولا فسادا][القصص: ٨٣]، ولا يتم ذلك إلا بترك الحسد والغل والحقد والغش وكلها خصال مذمومة فائدة.

قال الكرماني(786هـ): ومن الإيمان أيضًا أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء. والله أعلم.

وقال القاضي عياض: المراد من قوله صلى الله عليه وسلم: «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» أن يحب لأخيه من الطاعات والمباحات، وظاهره يقتضي التسوية وحقيقته التفضيل. لأن كل أحد يحب أن يكون أفضل الناس، فإذا أحب لأخيه مثله فقد دخل هو من جملة المفضولين، وكذلك الإنسان يحب أن ينتصف من حقه ومظلمته، فإذا كانت لأخيه عنده مظلمة أو حق بادر إلى الإنصاف من نفسه، وقد روي هذا المعنى عن الفضيل بن عياض -رحمه الله-إنه قال لسفيان بن عيينة(198هـ) -رحمه الله-: إن كنت تريد أن تكون الناس كلهم مثلك فما أديت لله الكريم نصحه، فكيف وأنت تود أنهم دونك؟ انتهى [1].

(1) فتح الباري(1/ 58) و عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، محمود بن أحمد(855هـ)، المنيرية(1/ 141 - 142).

(5)

الخاتمة

بعد هذا العرض الموجز نكون قد قدمنا إجابة شافية -على إيجازها-عن سؤال البحث، وتضمنت هذه الإجابة ما يفيد بأن كتب الفقه المالكي مليئة بما يحقق التربية الروحية لكل فرد الأمر الذي يعود على المجتمع في المحصلة النهائية بالأمن الروحي، وهو مطلب منشود تتوخاه الحكومات في خططها الاستراتيجية، لما له من عظيم الأثر على الرخاء والاستقرار.

قال زروق: هذه الأحاديث الأربعة عليها مدار التقوى والاستقامة في الدين [(1)].

وفي الختام أدعو منظري الجهات المعنية بالشباب والناشئة إلى تبني هذه الإلماحات وإدراجها في خططهم الاستراتيجية، وخصوصا المؤسسات الدينية والتربية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) زروق2/ 346.

المصادر والمراجع

- **اختصار المدونة والمختلطة باستيعاب المسائل واختصار اللفظ في طلب المعنى وطرح السؤال وإسناد الآثار وكثير من الحجاج والتكرار**، جمع واختصار ابن أبي زيد، محمد بن عبد الرحمن(384هـ)، تحقيق: د. احمد عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه بالقاهرة، ط. الأولى، 2013.

- **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار**، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر النمري(463هـ)، تح: حسان عبد المنان ود. محمود القيسية، مؤسسة النداء، ط:1، 2002م.

-**إكمال المعلم بفوائد مسلم**، عياض بن موسى اليَحْصُبي(544هـ)، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، ط:1، 1998م.

- **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة**، لمحمد بن رشد الجد(520هـ)، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار الغرب الإسلامي ببيروت، ط. الأولى، 1404هـ -1984م.

- **التربية الروحية في القران الكريم والسنة النبوية**، د. عبد العظيم الدخري، بحث منشور في مجلة جامعة كردفان – العدد الرابع – يونيو 2014م.

- **ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، عياض السبتي(ت:544هـ)، تحقيق: مجموعة من العلماء، الأوقاف المغربية، ط:2، 1983.

- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر النمري(463هـ)، تحقيق: مجموعة من العلماء، الأوقاف المغربية، 1967م.

-**تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، ابن مرزوق الجد، محمد بن أحمد(781هـ)، تحقيق: د. سعيده بحوت، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، ودار ابن حزم، ط. الأولى، 2011م.

-**جامع الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي (279هـ) تحقيق : صالح عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام – جدة ، ط. الأولى 1420هـ – 1999م، مجلد واحد.

- **الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ وغير ذلك، مختصر من السماعات عن مالك ومن الموطإ وغيره من الكتب مضاف غلى مختصر المدونة**، ابن أبي زيد، محمد بن عبد الرحمن(384هـ)، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، ط. الثانية، 1990م.

-**الجامع من المقدمات،** لابن رشد الجد، محمد بن أحمد(520هـ)، تحقيق: د. المختار بن الطاهر التليلي، دار الفرقان بعمان، ط. الأولى، 1985م.

- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب،** إبراهيم ابن فرحون(ت:799هـ)، مطبعة شقرون، ط: 1، 1351هـ.

-**الرسالة الفقهية على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس،** عبد الله بن عبد الرحمن القيرواني(ت:386هـ) المشهور بابن أبي زيد، تحقيق: أحمد عبد الكريم نجيب، دار المذهب للطباعة والنشر والتوزيع ومركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط. الأولى، 2016م.

- **سنن ابن ماجة،** محمد بن يزيد الرّبعي القزويني(273هـ)، دار السلام بالرياض ودار الفيحاء بدمشق، تحقيق: صالح عبد العزيز آل الشيخ، ط:1، 1999، مجلد واحد.

- **شجرة النور في طبقات المالكية،** محمد مخلوف(1360هـ)، دار الفكر.

- **شرح الزرقاني على موطأ مالك،** محمد بن عبد الباقي(1122هـ)، دار الفكر (تصوير).

-**شرح زروق، أحمد بن محمد البرنسي الفاسي**(ت:899هـ) على متن الرسالة للقيرواني، المطبعة الجمالية بمصر، 1332هـ.

-**شرح صحيح مسلم،** يحيى بن شرف النووي(676هـ)، بهامش إرشاد الساري، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، 1304هـ.

-**صحيح البخاري=الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم–وسننه وأيامه،** محمد بن إسماعيل البخاري(ت:256هـ)، تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي وقصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية القاهرة، ط. الأولى، 1400هـ.

صحيح مسلم=المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج القُشَيْري النيسابوري(261هـ)، المطبعة العامرة بإسطنبول، 1329هـ، تحقيق محمد زهير الناصر، تصوير وزارة الأوقاف القطرية، ط. الأولى، 2013م.

-**عمدة القاري شرح صحيح البخاري،** العيني، محمود بن أحمد(855هـ)، المنيرية.

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري،** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت 852هـ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

- **فقه الرسالة متنا ونظما وتعليقا،** د. الهادي الدرقاش، دار قتيبة، ط. الأولى، 1989م.

- **القبس في شرح الموطأ**، لأبي بكر بن العربي المعافري، محمد بن عبد الله (543هـ)، تحقيق: محمد ولد كريم، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط. الأولى، 1992م.

-**المسالك في شرح الموطأ**، ابن العربي المعافري(543هـ)، محمد بن عبد الله، تحقيق محمد بن الحسين السليماني، وفاطمة بنت الحسين السليماني، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، 2007م.

-**معجم مصطلحات الفكر العربي والإسلامي**، جيرار جهامي وعايده جهامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط. الأولى، 2012م.

-**المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، أحمد بن عمر القرطبي(656هـ) تحقيق: مجموعة من العلماء، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط:1، 1996م.

- **المنتقى شرح الموطأ**، سليمان بن خلف الباجي(494هـ)، السعادة بمصر، ط. الأولى، 1332هـ.

-**الموطأ**، مالك بن أنس(179هـ)، منشورات المجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية، ط. الأولى، 2013م.

- **الموطأ**، مالك بن أنس(179هـ)، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط. الثانية، 1997م، دار الغرب الإسلامي.

- **نظم الدرر في اختصار المدونة**، عبد الله بن عبد الرحمن الشَّارِمْساحي(669هـ)، تحقيق: د. خالد محمد الحوسني، دار ابن حزم، ط. الأولى، 2013م.

Inspirations of Spiritual Education
in Ibn AbyZaid's message

Summary

The research includes a preface, two themes, and a conclusion:

As for the preface : I discussed the spiritual education , Ibn AbyZaid's message, and its author, and Bab Al-Jamee which Al-Malikia used to include in their books like Imam Malik died in (179 H)

As for the first theme: I discussed in it Al-Jamee book from the log's summary of Ibn Aby Zaid, and from the message. I mentioned in their contents and how they are similar to the content of Al-Jamee book for all Malikia Imams.

But as for the second theme: I discussed in it some hints from the spiritual education from Jamee Al Resala. These hints comes in form of an explanation for Imam Ibn Aby Zaid's phrase – Allah may rest his soul- which was mentioned in Al-Jamee book about some great Hadiths , if Muslim take them as models and judged himself according to them annually, monthly, weekly, as daily, he sure will reach the sought spiritual education.